قدامة بن جعفر ونقد الهجاء

د . أبو العيد سالم مسعود الهراري

ترجمة موجزة لقدامة بن جعفر :

1- نسبه ومولده :

يقول ابن النديم في نسب قدامة : "هو قدامة بن جعفر بن قدامة ، وكان نصرانياً ، وأسلم على يد المكتفي بالله ، وكان قدامة أحد البلغاء والفصحاء ، والفلاسفة والفضلاء ، ممن يشار إليه في علم المنطق ، وكان أبوه جعفر ممن لا تفكر فيه ولا علم عنده" [1] أما المطرزي ، فيقول في نسب هذا الناقد :" هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة ابن زياد الكاتب البغدادي المضروب به المثل في البلاغة ، وقيل هو أول من وضع الحساب ، فظني أنّه أدرك أيام المقتدر بالله ، وابنه الراضي بالله وله تصانيف كثيرة " . [2] وهذا ما ردده أيضاً جرجي زيدان ، وأضاف أنّه أسلم أيام المكتفي لا على يده . [3] وكنيته أبو الفرج ، ولقبه الكاتب كما بيَّن ابن الجوزي [4] .

ورجّح عمر فروخ أنّه ولد في مدينة بغداد سنة (275هـ-888م) وترعرع فيها على دين النصرانية ، ودخل الدين الإسلامي على يد الخليفة المكتفي بالله في سنة (279هـ) وولي منصب مجلس الزمام ، وهو تابع لديوان الأموال في عاصمة الخلافة العباسية [5] .

وقد اختلف الرواة في ثقافة وعلم أبيه جعفر فيرى صاحب الفهرست أنّه لا ينبغي التطرق إليه؛ لأنّه ليس له علم ولا معرفة . [6] ووافقه في رأيه هذا ياقوت الحموي . [7] غير أنَّ الخطيب البغدادي يخالف هذا الرأي حيث يقول : " وجعفر بن قدامة بن زياد أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم ، وافر الأدب حسن المعرفة وله مصنفات في صنعة الكتابة ، وغيرها ، وحدَّث عن أبي العيناء الضرير ، وحماد بن إسحاق الموصلي ، ومحمد بن مالك الخزاعي ، ونحوهم وروى عنه أبو الفرج الأصفهاني" [8] .

2- علم قدامة بن جعفر وأدبه :

يقول ابن النديم : "وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار إليه في علم المنطق" [9] أما المطرزي فيضيف إلى ما سبق أنَّ أبا الفرج قدامة يضرب به المثل في علم البلاغة ، وهو أول من وضع علم الحساب كما يرى . [10] ويقول ياقوت

الحموى عنه : " وقرأ صدراً صالحاً من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، وإنْ كان المنطق في ذلك العصر لم يتحرر تحرره الآن ، واشتهر في زمانه بالبلاغة ، ونقد الشعر ، وصنَّف في ذلك كتاباً" [11] وتمنى الحريرى صاحب المقامات "أن يكون عالماً بعلم البلاغة كقدامة " . [12] و أشاد عمر فروخ بهذا العالم الناقد ، فيقول : " قرأ قدامة بن جعفر علوم اللغة والأدب ، وقرأ الفقه والمنطق والحساب والفلسفة ، ولكن غلب عليه علم اللغة والأدب والبلاغة ونقد الشعر وكان حسن التصنيف للكتب مع الإيجاز في اللفظ والسهولة في التركيب والتقريب للمعاني " . [13] وعدّه ابن النديم أحد الفلاسفة [14].

3- أساتذته :

أخذ العلم عن أبي سعيد السكري ، وهو راوية من رواة البصريين . [15] كما تتلمذ على يد عبد الله بن قتيبة الذي كانت له منزلة كبيرة في علم اللغة والأدب . [16] كما يرجع الفضل لأبي العباس المبرد في تعلم قدامة علم النحو واللغة . [17]

4- آثاره :

ذكر ابن النديم أنَّ لقدامة كتباً عديدة منها ما يأتي : كتاب نقد الشعر ، وهو أول كتاب مستقل في هذا الموضوع ، وكتاب نقد النثر ، ويعرف بكتاب البيان ، وكتاب الخراج ، وكتاب صابون الفم ، وكتاب صرف الهم ، وكتاب جلاء الحزن ، وكتاب درياق الفكر ، وكتاب السياسة ، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام ، وكتاب حشوحشا الجليس ، وكتاب صناعة الجدل ، وكتاب الرسالة في أبي على ابن مقلة وتعرف بالنجم الثاقب ، وكتاب نزهة القلوب وزاد المسافر . [18] ويضيف المطرزي إلى الكتب السابقة كتاب الألفاظ[19] . ويزيد ياقوت الحموى كتاب زهر الربيع في الأخبار ، وكتاب سر البلاغة في الكتابة . [20] وذكر أبو حيان التوحيدى أنَّه استفاد من كتاب لقدامة اسمه (الجوابان) . [21] أما حاجى خليفة فأضاف إلى ما سبق كتاب تفسير لبعض مباحث أرسطو [22] .

نستنتج من خلال ما لاحظناه من كثرة الكتب التي ألفها قدامة بن جعفر أنَّ هذا الرجل موسوعي المعرفة والتفكير ، وأن هذا يدل على سعة علمه ، وإحاطته بنواحٍ شتى من العلم والمعرفة التي كانت موجودة في عصره .

إلى جانب ذلك كانت لآرائه النقدية ردود فعل من قبل بعض النقاد القدامى ، فلم تجد بعضها قبولاً عندهم فألفوا فيها كتباً نقدية ردًّا عليها ، فالآمدي مثلاً ألف كتاباً سماه (تبيين غلط قدامة) ردّ فيه على كتاب قدامة (نقد الشعر) .[23] وعبد اللطيف البغدادي ألف كتاباً في شرح (نقد الشعر) عند قدامة ، وله كتاب آخر أطلق عليه اسم (كشف الظلامة عن قدامة) .[24] أما ابن رشيق القيروانى فله كتاب سمى (تزييف نقد قدامة) حسب ما أورده ابن أبى الأصبع المصرى في كتابه تحرير التحبير[25] .

مما سبق نلاحظ أن كتب قدامة أثارت حركة نقدية كبيرة ؛ لأنَّ قدامة كانت آراؤه تخالف آراء الكتاب والنقاد الآخرين في بعض الأحيان مما أدى إلى غضب بعض النقاد على ما ورد في بعض كتبه من آراء غريبة تخالف آراء ما درج عليه جمهور العلماء والنقاد الآخرين فردوا عليه بكتب وضحوا فيها ما يرونه من أخطاء في مؤلفاته وأفكاره ، ومن أمثلة مخالفته لمذهب ما كان عليه جمهور العلماء رأيه في المطابقة وهي محسن بديعي معنوي فعرفها بقوله : " هى اجتماع المعنيين المختلفين في لفظة واحدة مكررة ، . . . "[26] . ما يراه قدامة في هذا الشأن يراه آخرون جناساً لا مطابقة .

5- وفاته :

يرى المطرزي أنَّ أبا الفرج قدامة بن جعفر أدرك أيام المقتدر بالله ، وابنه الراضي ، وأنَّه توفي سنة 337هـ[27] ويذكر عمر فروخ أنَّ وفاة قدامة كانت على الأرجح سنة 337هـ . ونقل عن بروكلمان أنَّه جعل وفاته سنة 310هـ[28] . ويرى أبو الفداء أيضاً أنَّه توفي في سنة 337هـ[29] ونجد في كتاب الوافى بالوافيات أنَّ سنة وفاته 328هـ[30] . أما صاحب العطايا السنية فوضح أنَّ سنة وفاته لبضع وثلاثمائة[31] .

وأنا أرجح أنَّ تاريخ وفاة قدامة كانت سنة 337هـ . لأنَّ هذا ما كان عليه رأي أغلب الرواة الذين سبق ذكرهم والذين لم يذكروا لضيق المقام .

نعت الهجاء

ذكر قدامة أن الهجاء ضد المديح ويقول : "وكلما كثرت أضاد المديح في الشعر كان أهجى له ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها [32] ، وقد أصاب ابن الأثير الحلبي حين وضَّح معنى الهجاء حيث يقول : «والهجاء ذكر المساوئ كما أنَّ المديح ذكر الفضائل الإنسانية ، فإن أُضيفت الفضائل الجسمية إلى الإنسانية والفضائل الاتفاقية أيضا ، وهى التي تقع من خارج بطريق الاتفاق كان أكمل في المدح ، وكذلك الهجاء إنما هو حقيقة للرذائل الإنسانية فإن أضيفت إليها النقائص والعيوب الجسمية والاتفاقية الخارجية التي تقع بطريق الاتفاق كان ذلك الهجاء أبلغ في الذم ومثلهما أنَّ الاقتصار في المديح على الأوصاف الجسمية عيب وهو عيب في الهجاء " وفرَّق بين الهجاء والمديح فقال : "إنَّ الهجاء يختص بأشياء لا تكون في المديح فمن ذلك أنَّ التعريض في الهجاء أبلغ من التصريح في كثير من الأوقات وأهجى ، بخلاف المديح فإنَّه لا يحسن فيه كثير من الأوقات إلا التصريح فإنَّ من شأن المحاسن أن تنتشر ، ومن شأنِ المساوئ أن تطوى" [33] وضرب قدامة مثلاً للهجاء المُوجع المُقذع بقول أحمد بن يحيى :

كاثر بسعد إنَّ سعداً كثيرةٌ ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصرا
ولا تدعُ سعداً للقراع وخلّها إذا أمنت من روعها البلد القفرا
يروعك من سعد بن عمرو جسومها وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

عقَّب على ذلك بقوله : "فمن إصابة المعنى في هذا الهجاء أنَّ الشاعر سلَّم لهؤلاء القوم أمرين يظن أنهما فضيلتان وليستا بحسب ما وصفناه من الفضائل فضيلتين ، وهما كثرت العدد وعظم الخلق ، وغزا بذلك مغازى دلت على حذقه في الشعر فمنها ، أنْ أدخل لهم هجاء في باب الأقوال الصادقة لإعطائه إياهم شيئاً ومنعه لهم شيئاً آخر وقصده بذلك أنْ يظن أن قوله فيهم إنما هو على سبيل الصدق وذكره إياهم بما فيهم من جيد ورديء .

ومنها : ما بان من معرفته بالفضائل حتى يميز صحيحها من باطلها فسلم الباطلة ومنع الصحيحة ومنها : أنَّه قطع عن هؤلاء القوم ما يعتذر به الكرام من قلة العدد ، فإنَّ الكرام أبداً فيهم قلة ، كما قال السموأل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إنَّ الكرام قليل [34]

وهذا الرأي أكَّده ابن الأثير الحلبي حيث يقول : " أشد الهجاء ما عف لفظه وصدق معناه فمن وضيع الهجاء ما خرج مخرج التهكم والاستهزاء وتجاهل العارف بالقصة التي تجاهل فيها" [35] .

غير أن أبا هلال ذكر أنَّ بعض العرب كانت تفتخر بكثرة العدد وتذم قلته ، فقد قال الأخطل :

"الأكثرين حصىً والأطيبين ثرى" [36]

ومن خبيث الهجاء أيضاً قوله :

إنْ يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا

يغدو عليك مُرجَّلين كأنَّهـــــم لم يفعلوا

علق قدامة على هذا الهجاء حيث يقول : "فمن جودة هذا الهجاء أنَّ الشاعر به تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم لأنَّ الغدر ضد الوفاء والفجور ضد الصدق والبخل ضد الجود ثم أتى بعد ذلك بضد أجلَّ الفضائل وهو العقل حيث قال : " وغدوا عليك مرجلين كأنَّهم لم يفعلوا ، لأنَّ هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمة والقحة التي هي من عمى القوة المثيرة كما قال جالينوس في كتابه أخلاق النفس [37] كذلك نوَّه أبو هلال العسكري بهذين البيتين [38] وبيَّن أبو عثمان عمرو الجاحظ أنَّ أبا عبيدة معمر بن المثنى يرى أنَّ هذين البيتين من الشوارد التي لا أرباب لها غير أنَّه نسبهما إلى أبي المثلم الهذلي [39] ويعتقد ابن الأثير الحلبي أنَّ "من الهجاء الأعظم الوصف بالبخل وذلك يدل على لؤم الطباع في البخيل وسوء عقيدته في خلف ما ينفقه وانهماكه على الدنيا كأنَّها مخلدة له ولأنَّ البخيل عند معاناة البخل والاستكثار منه لا يخلو من داهية تناله من عرضٍ أو غرضٍ أو وارثٍ يخلص من دنياه على أنحس حالة فلم ينل من الدنيا غرضا ولا قدم للآخرة ما يجد عنه عوضا فهو على حد سواء حاله في الدنيا والآخرة وقد وجد الشعراء في هجوه أوصافاً كثيرة أوسعوا فيها المجال وأطالوا فيها المقال "[40] .

والواقع أنَّ موقع الجمال في هذين البيتين هو خفتهما ، وروح التهكم والسخرية فيهما جعلهما في لذعهما في تصويرهما هؤلاء بالتبجح وفقد الحياء وجمود العرض ، وعدم المبالاة ، وليس في البيتين في الغدر والفجور والبخل ، فبذلك نقائض لو أنها

قيلت على وجه كان ما دلت على شيء وما كان فيها جمال ، ولكن قوة البيتين في أنهم لا يأتون لفجورهم ولا يكترثون بغدرهم ولا يغضون أبصارهم من الخجل ، ولا يدركون أنهم يأتون من الأمر منكراً .

ومن أمثلته أيضاً قول زياد الأعجم في غياض بن حصين بن بدر :

وسميت غياضا ولست بغائظ عدواً ولكن للصديق تغيظ
عدُّوك مسرورٌ وذو الردِّ للذي يرى بك من غيظ عليك كظيظ
تسمى لما أوليت من صالح مضى وأنت لتعداد الذنوب حفيظ
تلين لأهلِ الغل والغدر منهم وأنت على أهل الصفاء فظيظ [41]

وهكذا يرى ابن طباطبا العلوي أنَّ الهجاء ينبغي أن يكون "بالبخل والجبن و الطيش والجهل والغدر والاعتذار والفشل والفجور والعقوق والخيانة والمهانة والكذب ... والإضاعة والقبح والدمامة والقماءة والابتذال والخرق والعجز والعي .... [42] .

وهذا ما يراه أيضاً أبو هلال فالهجاء الحسن عنده هو الذي يسلب المهجو الصفات النفسانية الحسنة فأفضل الهجاء عنده الذي يكون بوصم المهجو بالبخل واللؤم والشره والغدر والفجور ... [43] ويقول : "أبلغ الهجاء ما يكون بسلب الصفات المستحسنة التي تخص النفس والحلم والعلم والعقل وما يجري مجرى ذلك" ... [44] .

ويذكر قدامة أن من الهجاء ما تحسن به المعاني ، وتجمل كما في المدح فيستحسن إذا أُصيب به الغرض المقصود إذا كان موجزاً في لفظه ، واستشهد على ذلك بقول العباس بن يزيد الكندي في هجائه جريراً ومعارضته إياه في قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً
أو اطَّلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا [45]

غير أنَّ أبا هلال أعدَّ هذا من الإفراط في الهجاء [46] أما ابن طباطبا العلوي فهو يرى أنَّ البيت الأول من بيتي جرير يعد من الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها [47] وهذا على خلاف ما نقله محمد بن سلاَّم عن علاء بن جرير رأيه الذي ذكر فيه أنَّ هذا البيت يعد أهجى بيت قالته العرب . [48]

وفي الواقع أنَّ هذا من الهجاء الذي أصيب به الغرض مع إجمال المعاني ، ومثل قول الكندي قال مرة بن عداء الفقعسي :

وإذا تسرك من تميم خصلةٌ فلما يسوءك من تميم أكثر[49]

وهذا من أخبث الهجاء عند أبي هلال[50] وهكذا قول الآخر :

ويقضي الأمر حين تغيب تميم ولا يستأذنون وهم شهود

ومما يندرج في هذا أيضاً قول الحكم الخضري :

ألم تر أنَّهم رقموا بلؤم كما رقمت بأذرعها الحمير [51]

واستشهد بهذا البيت لحسن وجودة الهجاء أيضاً أبو هلال العسكري [52] ومثله قول الأعشى :

بنو تميم قرارة كل لؤم لكل مصب سائلة قرار [53]

وقد ساند الحاتمي قدامة الرأي في هذا الشأن [54] وأما أبو هلال فقد نسب هذا البيت للفرزدق عند هجائه جرير ، وهذه هي روايته له :

أنتم قرارة كل معدن سوءة ولكل سائلة تسيل قرار

وذكر أنَّ الناس اتفقوا على أنَّ قول الفرزدق في جرير يعد أهجى بيت قالته العرب[55] .

وتبعه أبو تمام فقال :

أضحوا بمستنٍّ سبل اللؤم وارتفعت أمواهم في هضاب المطل والعلل[56]

وقد تمثَّل بهذا البيت أيضاً أبو هلال العسكري [57] وهكذا قول جرير :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا[58]

وذكر أبو هلال نقلاً عن بعض العرب أنَّ أشعر الناس جرير حيث قال :

فغض الطرف إنك من نمير ... إلخ البيت [59] وقد تطرق أيضاً إلى هذا البيت شهاب الدين الإبشيهي وعدَّه من الهجاء المقذع . [60]

ومن الهجاء الجيد قول الآخر :

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد[61]

وهذا الرأي نجده أيضاً عند أبي هلال العسكري . [62] وبين ابن قتيبة أنَّ دعبلاً بن على الخزاعي يرى أنَّ أهجى بيت قالته العرب قول الطِّرماح في القلة والخمول :

لو كان يخفى على الرحمن خافية . . . . إلخ البيت[63]

غير أنَّ ابن طباطبا العلوي يرى أنَّ هذا البيت من الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيه[64] .

وقد عقَّب على هذا البيت أحمد بدوى حيث يقول : "تجد تهكم الشاعر مثيراً فيك شتى الانفعالات ، إذ تعجب بمهارة الشاعر في الوصول إلى معنى يدل على منتهى ما يصل إليه ضآلة المخلوقين حتى لو كان من الممكن أن يخفى على الله شيء لكان هؤلاء أحق شيء بأن يخفوا على الله ، كما يثير ناحية التهكم والضحك" . [65] .

ومثله قول الآخر كما يرى قدامة :

قوم إذا ما جنى جانيهم أمنوا من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قودا[66]

اعتبر المرزباني هذا البيت أذكى ما قيل في غرض الهجاء[67] وهو من أمثلة الهجاء الحسن عند أبي هلال [68] .

ومثله أيضاً قول زياد الأعجم :

إني لأكرم نفسي أن أكلَّفها هجاء جرم ولما يهجهم أحد

ماذا يقول لهم من كان هاجيهم لا يبلغ الناس ما فيهم وإن جهدوا

ثم قول أوس بن مغزاة :

فلست بعافٍ عن شتيمة عامرٍ ولا حابسي عما أقول وعيدها

ترى اللؤم ما عاشوا جديداً عليهم وأبقى ثياب اللابسين جديدها

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

عقَّب قدامة على قول أوس حيث يقول : " هذه الأبيات قالها أوس وهو يهاجي النابغة الجعدي ، فيقال إنَّ النابغة كان يقول إني وأوساً نبتدر بيتاً فمن قاله غلب على صاحبه فلما قال أوس البيت الأخير قال هذا هو البيت الذي كنا نبتدره فغلب أوس عليه" .

ومن جيد الهجاء عند قدامة كذلك قول عباس بن مرداس السلمي في سفيان ابن عبد يغوث النصري :

وأوعد وقل ما شئت إنك جاهل علي أما أنت امرؤ من بني نصر

ويقول قدامة " وما أجود ما قال الفرزدق في عبد الله عمير الليثي حيث هرب من أبي فديك الخارجي وكان يتمنى لقاء الخوارج :

تمنيتهم حـــــتى إذا ما رأيتهم تركت لهم عند الجلاد السّرادقا
و أعطيت ما تعطي الحليلة بعلها وكنت حبارى إذ رأيت البوارقا

وفي قوله ما تعطي الحليلة بعلـــــها ، مع إيجازه عجائب ، وكذلك في قوله حبارى " [69] .

وهذا في الواقع يعد من فحش الهجاء ، وهو لا يرضى عنه عدد كبير من النقاد ، فقد ذكر ابن الأثير العلوي أنّه لا ينبغي أن يكون الهجاء " في ظاهره فحش يتحاشاه ذوو الدين والمروءة ، ولا يقبح إيراده في المحافل ، ولا يخشى غائلة المهجو به غالباً ... " [70] ويروي ابن رشيق القيرواني عن أبي عمرو بن العلاء أنّه قال : "خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها " [71] ويقول ابن رشيق : "وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريراً فإنّه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة وإذا هجوتم فخالفوا" ، وقال أيضاً : " إذا هجوت فأضحك" ، وسلك طريقته في الهجاء سواء علي بن العباس الرومي ، فإنّه كان يطيل ويفحش ، وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن في التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته " [72] .

ويبدو أنّ الفرزدق من الشعراء الذين اتبعوا جريراً في سلوكه مسلك اتباع الفحش المقذع من الهجاء . كذلك حذّر سيدنا عمر بن الخطاب من استعمال الهجاء المقذع جاء ذلك في تنبيهه للحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر ، حيث يقول سيدنا عمر "إياك والهجاء المقذع ، قال : وَما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول : هؤلاء أفضل من هؤلاء ، وتبني شعرك على مدح لقوم وذم لأعَاديهم ، فقال : يا أمير المؤمنين والله أنت أعلم مني بمذاهب الشعراء ، ولكنّ حباني هؤلاء فمدحتهم وحرمني هؤلاء فذكرت حرماتهم ، ولم أنل من أعراضهم شيئا [73]" .

ووضح قدامة أنّ بعض الشعراء ، يفرط في ذكر نقيصة واحدة من النقائص كما يغلو في المدح في فضيلة واحدة وضرب على ذلك مثلاً بقول الحطيئة يغرق في ذكر البخل فقال :

كددت بأظفاري وأعلمت معمولي فصادفتُ جلموداً من الصخر أملسا
تشاغل لما جئت في وجه حاجـــتي وأطرق حتى قلت قد مات أو عسى

وأجمعـــــــتُ أن أنعاه حين رأيته يفوق فواق الموت حـتى تنفـــــسا
فقلت له لا بأس لســـــت بعائد فأفرخ تعلـوه السمادير ملبـــــسا

ومنه قول جرير في ذكر العجز وحده :

ولا يتقون الشر حتى يصبهم ولا يعرفون الأمر إلا من النذر

وبين قدامة أنَّه في باب الهجاء ينظر فيه إلى باب المديح وأقسامه وأسبابه فيجري مجراه في أقسامه ومراتبه ودرجاته ؛ لأنَّ المديح في الواقع ضد الهجاء فيلـزم أن تـأتي في المـديح ضد معنى الهجاء [74] .

وأسامة بن منقذ ساند قدامة الرأي حيث يقول : "وأصل الهجاء سلب المـديح فكـل ما مدح به فسلبه هجاء وضده أيضاً قد يخرجه الحاذق مخرج الحق"[75] .

مما سبق يتضح أنَّ الهجاء الجيد عند قدامة هو تعداد مثالب المهجو ، ونفي الخـصال الحميدة عنه فكما أنَّ المديح هو ذكر محاسن الإنسان فإن الهجاء هو ذكر مثالبه .

عـيـوب الهـجاء

خلاصة القول عنـد قدامـة : أنَّ سـبب الخطـأ في الهجـاء هـو أنَّـه عنـدما لا يكـون بالفضائل النفسية ، ومن ذلك أن ينسب إلى شخص قبح الوجه ، أو صغر الجسم أو قلة المال ، أو يوصف بأنَّه من قوم غير أشراف إذا كانت أفعال ذلك الشخص حسنة ومقبولة وخصاله شريفة ، ومن أمثلة الخطأ في الهجاء أيضاً أنْ يوصم أحد الناس بأنَّ أبويـه علـى غير صواب إذا كان هو على حق ، أو بأنْ يوصفان بالغواء إذا كـان هـو سـديد الـرأي أو يوصم المهجو بقلة عدد أفراد العشيرة إذا كان شريفاً كريماً أو ينعته بعدم نضارة الوجه إذا كان راجح العقل وشهما" [76] .

وما تطرق إليه قدامة كرره أبو هلال العسكري فقد ذكر أنَّ عيوب الهجاء كثيرة ومن بينها الهجاء بالصفات الجسمية ، مثل الوصف بصغر وقبح الوجه وغيرهما مـن الـصفات الخَلقية ، فوصف الإنسان بهذه النعوت لا يُعدَّه أبو هلال هجاءً مـصيباً وكـذلك الهجـاء بقلة عدد أفراد العشيرة [77] .

أما ابن رشيق فقد خالف رأي قدامة فيما يتعلق بالاقتصار في الهجاء علـى الفـضائل النفسية فقد أوضح رأيه هذا في قوله : "وأجود ما في الهجاء أنْ يسلب الإنـسان الفـضائل

النفسية وما تركب من بعضها مع بعض فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعائب فالهجاء به دون ما تقدم ، وقدامة لا يراه هجواً البتة وكذلك ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لا يراه عيباً ، ولا يعد المهجو به صواباً ، والناس إلا من لا يُعدَ قلة - على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد في الطباع وقد جاء ما أكَّد ذلك من أحكام الشريعة" [78] أما ابن الأثير الحلبي فيقول : "إنَّ الاقتصار في المدح على الأوصاف الجسمية عيب وهو عيب في الهجاء"[79] .

وضرب قدامة أمثلة استدل بها على صواب رأيه ، ومن ذلك ما رواه أبو العباس أحمد بن يحيي الملقب بثعلب :

رأت نصف أسفار أميمة قاعداً ... على نصف أسفار يجن جُنونها
فقالت من أي الناس أنت أتيتنا ... فإنَّك راعي ثـلَّة لا ترينها
فقلت لها ليس الشحوب على الفتى ... بعارٍ ولا خير الرجال سمينها

عقَّب على ذلك فقال : " فهذا صحيح في أنّ القبح والشحوب والسماجة ليست بعار" [80] وهذا الرأي حرص على تأكيده أيضاً أبو هلال العسكري ، واستدل بنفس هذه الأبيات التي استشهد بها قدامة [81] .

كما ضرب قدامة مثلاً آخر بقول أحدهم في ابن له سخر بعض الرجال منه فمنعهم من خيارته فأغاروا عليه من أجلها :

رأوه فازدروه وهو خرق ... وينفع أهله الرجل القبيح[82]

كما تمَّثل بهذا البيت أيضاً أبو هلال العسكري . [83]

واستشهد قدامة بقول أحد الشعراء يعد قلة المال ليست بعار :

عليك براعي ثلة مسلحبة ... يروح عليه نُحضها وحَقينها
سمين الضَّواحي لم تؤرقه ليلة ... وإنْ عمَّ أبكار الهموم وعونها [84]

ونجد هذا الرأي أيضاً عند عبد الله بن قتيبة ، فقد ذكر أنَّه لا يجوز ذم الشخص بقلة ماله ، وضرب على ذلك مثلاً بقول الشاعر :

ما الفقر عار ولا الغني شرفُ ... ولا سخاء في طاعة شرفُ[85]

غير أنَّه ذكر أنَّ الناس مختلفون في ذلك ، فقد قال عروة بن الورد مخالفاً رأي الشاعر السابق الذكر :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير [86]

ومن فضَّل الفقر على الغنى قال الطائي الأكبر :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي [87]

واستشهد قدامة على أن قلة العدد ليست عيباً ولا سبة بقول السموأل :

تعيرنا أنَّا قليل عديدنا فقلت لها إنَّ الكـــرام قليل

وما ضرنا أنَّا قليل وجارنا عزيزُ وجار الأكثرين ذليل

عقَّب على ذلك فقال : " فعدي هذا الشاعر عن الهجاء الذي عيرتهم به هـذه المعـيرة واحتج فيه بما دلَّ على أنَّه غير ضائر ، ثم وصف بعد ذلك نفسه وقومه بالأوصاف الـتي تليق بذكرنا إياها في هذا الموضوع للمنفعة في تعليم الهجاء الجاري على الصواب ، فقال:

وإنَّا لقومُ ما نرى القتل سبَّةُ إذا ما رأته عامرُ وســـلولُ

يقِّرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالـــــم فتطـول

وما مات منَّا سيدُ حتف أنفه ولا طُلَّ منَّا حيث مات قتيل

لنا جـــبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل

علَّق على ذلك فذكر أنَّ السموأل أتى بالوصف والكرم وهذا أحد أقسام العدل عند قدامة [88] .

ثم أورد قدامة للسموأل أيضاً قوله في تلك القصيدة :

وننكر إنَّ شئنا على الناس قولهـم و لا ينكرون القول حين نقول

إذا سيدُ منَّا خـلا قام ســـــيِّدُ قؤول لما قـال الكرام فعـــول

سلي إنْ جهلتِ الناس عنا وعنهم فليس ســـــواء عالم وجهول

علَّق على ذلك فذكر أنَّ السموأل أتى بالوصف والمدح من ناحية العقل والفهم والرأي .

وتمثَّل قدامة لصواب الهجاء بما أنشده أحمد بن يحيى :

وإني لا أخزى إذا قيل مملق جوادُ وأخزى أنْ يقال بخيل

واستدل على أنَّ ذكر الأبوين لا يعد من صواب الهجاء حيث يقول : "وبلغني أنَّ ابن الزبير لما دخل الشام ناداه أهله يا ابن ذات النطاقين فقال لابن أبي عتيق : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، فأبان بهذا القول أنَّه لا يلزمه ما قال في أمه ، فإذا تؤمل ما ذكرته في هذا الباب لم يبعث الوقوف على الهجاء كيف يتعرف" [89]

مما سبق ذكره يتضح أنَّ الغاية والهدف من الهجاء هو الحط من قدر المهجو ، وإهانته واحتقاره وازدرائه وسلبه من الفضائل سواء أكانت خُلقية أو خلقية ، وإلصاق المساوئ به ، ويرى بعض النقاد أنَّ الهجاء بالفضائل النفسية أقوى أثراً من الهجاء بالفضائل الجسمية ، وحبذا لو اجتمع الهجاء بكلا النوعين وذلك ؛ لأنَّ القصد والغاية من الهجاء على العموم هو التأثير على المهجو فيجعله يتألم وينزعج من سماعه كما يرى حازم القرطاجني [90] وابن رشيق الذي يقول : "والذي أراه أنا على كل حال أنَّ أشد الهجاء ما أصاب الغرض ، ووقع على النكة ... [91] " .

أما قدامة بن جعفر فيرى أنَّ الهجاء ينبغي أن يكون بالمناقب النفسية ، فيعد الهجاء بالفضائل الجسمية عيب من عيوبه ، وقد وضحت أنَّ غيره من النقاد خالفوه الرأي كابن رشيق الذي ذكر أنَّ الهجاء بالصفات والفضائل العرضية يوجد في الطباع ، وقد جاء ما أكده من أحكام الشريعة ، وقد ورد هذا النوع من الهجاء في كلام العرب ، وفي أشعارهم .

قائمة المصادر والمراجع

1. الفهرست ، ابن النديم ، ص 188 ، م : مكتبة خياط ، بيروت .
2. الإيضاح ، المطرزي ، ص40 .
3. تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، المجلد الأول ، ص481 ، م : منشورات دار مكتبة الحياة ، سنة 1983م .
4. المنتظم ، ابن الجوزي ، المجلد الثاني ، ج6 ، ص28 .
5. تاريخ الأدب العربي- الأعصر العباسية – عمر فروخ ، ص434 ، م : دار العلم للملايين ، بيروت .
6. الفهرست ، ص130 ، ط : ليبزج .
7. معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ج6 ، ص203 ، م : أحمد فريد الرفاعي ، القاهرة ، سنة 1936م .
8. تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، ج7 ، ص205 ، ط (القاهرة) .
9. الفهرست ، ص130 .
10. الإيضاح ، ص40 .
11. معجم الأدباء ، ج6 ، ص204 .
12. مقدمة المقامات .
13. تاريخ الأدب العربي ، ص434 .
14. الفهرست ، ص130 .
15. نزهة الألبا في طبقات الأدباء ، ابن الأنباري ، ص274 ، 275 .
16. المرجع نفسه ، ص272 .
17. المرجع نفسه ، 272 .
18. الفهرست ، ص130 .
19. الإيضاح ، ص40 .
20. معجم الأدباء ، ج6 ، ص204 .
21. أبو حيان التوحيدي ، عبد الرزاق محيي الدين ، ص189 .
22. كشف الظنون ، حاجي خليفة ، ج3 ، ص619 :630 .
23. الموازنة ، الآمدي ، ص125 ، طبعة صبيح .
24. كشف الظنون ، ج2 ، ص400 .
25. تحرير التحبير ، ابن أبي الأصبع المصري ، ص88 .

26. علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، ص68 ، م : دار النهضة العربية ، بيروت .
27. النجوم الزاهرة ، ابن المطرزي ، ج2 ، ص323 ، طبعة ليدن .
28. تاريخ الأدب العربي ، الأعصر العباسية ، ص434 .
29. البداية والنهاية ، ابن الأثير ، ج11 ، ص320 .
30. الوافي بالوافيات ، الصفدي ، القسم الأول ، ج7 ، ص41 .
31. العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، الملك الأفضل ، ص207 .
32. نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ص113 ، م : دار الكتب العلمية ، بيروت .
33. جوهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي ، تحق : محمد زغلول سلام ، ص309 ، 310 .
34. نقد الشعر ، ص144 ، 113 .
35. جوهر الكنز ، ص312 .
36. ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ، تحق : محمد عبده ومحمود الشنقيطي ، ج 1 ص83 ، م : دار الجيل ، بيروت .
37. نقد الشعر ، ص114 .
38. الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ص106 ، ط (الأولى) ، م : إحياء الكتب العربية ، سنة 1952م .
39. البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحق عبد السلام هارون ، ج3 ، ص333 ، ط (الأولى) ، م : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة 1949م .
40. جوهر الكنز ، ص332 .
64 . عيار الشعر ، ص61 .
65 . أسس النقد الأدبي عند العرب ، أحمد أحمد بدوي ، ص 252 ، ط الثالثة ، م : النهضة المصرية سنة 1973م .
66 . نقد الشعر ، ص116 .
67 . معجم الشعراء ، المرزباني تحق : عبد الستار أحمد فراج ، ص127 ، دار إحياء الكتب العربية سنة 1960م .
68 . الصناعتين ، ص105 .
69 . نقد الشعر ، ص116-117 .
70 . جوهر الكنز ، ص310 .
71 . العمدة ، ج2 ، ص170 .
72 . المرجع نفسه ، ص172-173 .
73 . جوهر الكنز ، ص311-312 .

74 . نقد الشعر ، ص117 .

75 . البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحق : أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، ص293 ، م : مصطفى البابي الحلبي .

76 . نقد الشعر ، ص187 .

77 . الصناعتين ، ص104-105 .

78 . العمدة ، ج2 ، ص174 .

79 . جوهر الكنز ، ص310 .

80 . نقد الشعر ، ص187 .

81 . الصناعتين 104 .

82 . نقد الشعر ، ص187-188 .

83 . الصناعتين ، 104 .

84 . نقد الشعر ، ص188 .

85 . عيون الأخبار ، ج2 ، ص373 .

86 . المرجع نفسه ، ص241 .

87 . المرجع نفسه ، ص 247 .

88 . نقد الشعر ، 188 .

89 . نقد الشعر ، ص189 .

90 . منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، تحق : الحبيب بن الخوجة ، ص352 ، م : دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966م .

91 . العمدة ، ج2 ، ص175-176 .